# " سكّين الحريّة "

تخيّلي فقط، تخيّلي أنّها كبُرت و صارت امرأة، هي ابنتُكِ الوحيدة، أعطيتِها من روحك ما يعطي الشّهيد لتحرير أرضه، سنوات تعب و شقاء، سنوات أمل و ألم، صبر و انتظار، بقاء و استمرار، مقاومة وتشبُّث، إلى أن لحقت بك العلل المُهلكات و غلّف رأسَك الصّغير الأبيضُ المَعيب، بعد أن استوطن هذا المشيب و غاب لأبد الآبدين الحبيب، بعد عشرين سنة من فقدان أبيها و عِقدَيْ جهاد دون هوادة انتظرتِ الجائزة ...

أيُّ جائزة ؟

فقط ردّ الجميل، اعتراف و حسب، كلمات قليلة، ذات دلالة بسيطة: "شكرا لأنّك أمّي، شكرا لفضلك عليّ".

انتظرتِ الردّ و قلتِ في نفسك: "ستُعوّضني ابنتي عن تلك السّنوات القاسية، سأعيش مُطمئنّة و إيّاها في الأيّام الباقية، فقد بذلتُ ما في وسعي لتكون لربّها تقيّة مُؤمنة، و لي مطيعة و في وقت الحاجة قائمة، أجدها وقت الضّيق و العسرة كما وجدتها وقت السّعة و الخير، لن يذهب تعبي سدًا و أنا التي أحرقت كلّ ما فيّ لتشتعل هي، لتضيء بنور أخلاقها حياةً تستعدّ لخوضها، جعلتُ منها رجلا و امرأة، محاربًا عنيدا في الشّدائد و أمّا حنونا وقت ما كان اللّين واجبًا، لم أترك صغيرة و لا كبيرة إلاّ علّمتها إيّاها، لا شاردةً و لا واردةً إلاّ تكلّمنا فيها و بكلّ حريّة، فتحنا قلبينا لبعضنا فكنت أمّها و صديقتها و نفسها التي تخالجها، وفّرت لها أسباب العيش الكريم و الرّاحة النّفسيّة رغم النّقص الذي أثّر و لا يزال في نفسينا نحن الاثنتين، فدنيا دون زوج، دون أب، مرّة مرارة الحنظل، قاسية قساوة الصّخر، و مع ذلك تجاوزنا ما كان يقف حاجزًا و سعادتنا المرجوّة، تعاونّا و حقّقنا ما ظننّاه مستحيلا، الحمد لله الذي أكرمني بحسن تربيتها و طيب سيرتها، ما نقُص سوى أن تنجح في مسعاها الدنيويّ و يسترها ابن بار يكون رجلاً كما كان أبوها، سأموت مرتاحة البال و الخاطر، بل سأموت سعيدة".

هكذا ظننتِ، و ما الظنّ يغني عن الحقّ شيئا ...

لأنّ الواقع أمر آخر و الحقيقة أشدّ مرارة من الحنظل، صعب تجرّعتها، يكاد يستحيل تقبّلها في صدمتها الأولى التي تعرّي لك ما خفي من مصائب، لكنّها الحقيقة.

تلك البنت البارّة، حسنة الخُلُق و الخِلقة، الحييّة، الصّادقة المُؤمنة، المُحبّة للكلّ، تقوم بما لم يستطعه الخبيث اللّئيم ...

ماذا فعلت ؟

على ماذا أقدمت ؟

في غفلة من أمّها طوت صفحات الحياء و الحِشمة، صفحات نقلتها من لسان أمّها و جعلتها فقط واجهةً تواجه بها، لم تستوعبها يوما، بل مثّلتها تمثيلا و نجحت...

في الحقيق كانت ساقطةً بائعة هوى، تُعطي جزيل جسدها لمن دفع أكثر و زاد، كانت زانية مُحترفة لا ترفض عرضًا و لا تردّ صفقة، كانت كما تريد هي "حرّة" تفعل ما تشاء فهي البالغة الرّاشدة، القادرة على تسيير حياتها بما أوحى لها جنونها و غباؤها.

بعد انكشاف أمرها و بيان حقيقتها ما كان لها إلاّ الاعتراف بكامل ما قامت به مُعتزّة بما قامت، كادت أمّها تموت من وقع الصّدمة، بقيت صامتة، فقدت حركتها و قدرتها على النّطق، أمّا "التقيّة" فتركتها و هربت مع أخر خليل زنت معه طالبةً المزيد من "الحريّة"، المزيد من كلّ شيء دون حدّ.

"الحريّة" هاته هي السكّين الذي اخترق قلب الأمّ فتركها تنزف رويدا رويدا، هاته القصّة و غيرها وجه واحد لحقيقة واحدة: نظنّ أنّنا نعيش في حريّة إذا أشبعنا رغباتنا و أطعنا أنفسنا الجامحة، غير أنّنا نعيش العبوديّة، نحن عبيد هاته النّفس التي تأمرنا فنطيع، و تدفعنا فنمضي، تزيّن لنا اللّذّات و تُعمينا عن العواقب.

نعيش العهر الأخلاقيّ فنضرب عرض الحائط القيم فنسبّ و نشتم و نغتاب و نكذب و نحتال و نقوم بأسوأ من ذلك دون رادع، تلك حريّ شخصيّة، العهر الماليّ أيضا، نسرق و ننهب و نغشّ بحجّة أنّ المال عامّ ملك للكلّ، العهر الاجتماعي، لا احترام و لا تقدير، لا خجل و لا احتشام، وغيرها من أنواع العهر الصّارخة بالحريّة الكاذبة التي تسجننا خلف قضبان رغباتنا فحسب.

في الحقيقة لا يمكن أن يعيش الإنسان "حرًّا" تماما، لا بدّ أن يتقيّد، أن يتوقّف، أن ينضبط و لا يطلق العنان لرغباته الحيوانية تحت مسمّى "الحريّة"، و لا أن يسمّي الأولى بالثّانية، إنّه غطاء يرجو منه المفسدون جرّنا به إلى ما لا يُحمد عقباه، و منه يتحكّمون بنا إذا تحكّموا بما يؤجّج شهواتنا فيقتادونا كما تُقتاد البهيمة الجائعة .

قديما كان للحريّة معنى أكبر و أعمق، أطهر و أسمى، سبب ذلك أنّ الإنسان عاش من الحروب ما جعله يفكّر في الخلاص من الظّلم و العدوان، فصارت الحريّة حقًّا مشروعًا، موافقا للفطرة السويّة، تنادي به العقول الرّصينة، الآن استكان الوضع و غابت الحروب تقريبًا، فظهر من بني البشر ما يؤوّل الحرية و يعطيها معاني و دلالات جديدة بحسب الرّغبات غير السويّة ليجعلها قضيّة يشتغل بها صغار النّفوس و العقول، و رؤوس هاته

النّظريات و الآراء بعيدون كلّ البعد عن هذا اللّغط، و إنّما يغرقوننا في وحل قذر ليبقوْا هم متحكّمين في مجريات الحياة في مختلف الميادين و المجالات.

يستخدمون "الحريّة" لغرض لم تكن يوما له.

يستخدمون "خدعة الحريّة" لسجننا و التحكّم فينا.

يريدون رسم مصائرنا بحفّ سبلنا بكلّ تلك المغريات التي تنافي طبيعتنا النقيّة الصّافية، يريدون طعننا بسكّين صنعوه ليمثّل "الحريّة الشّخصيّة"، غير أنّه قاتلنا اليوم أو غدًا.

# العلم الحقيقيّ

يؤخذ العلم من كلّ إنسان، في كلّ وقت و في كلّ مكان، هو يتّسم بالعالميّة، بالحريّة، منذ أن ولد الإنسان و هو يتعلّم و يكتشف، تصبح تلك المكتسبات خبرة مع التّقادم، تلك التجارب المفرحة و الأليمة يعتمد على أثرها في مواجهة التحديات القادمة، فلا يعيد نفس الأخطاء فيما يأتي.

المدرسة ليست "التّجربة" و حسب، بل "الحياة" التي هي ميدان صراع، فإمّا أن تقود أو تكون فيها المقتاد.

سلاحك في هذا الصّراع "المعرفة الموسوعيّة "، معلومات من شتّى المجالات و الميادين، كلّ ما استطعت اكتسابه و ما أتاحه عقلك فهمه و إدراكه.
العلم أوسع و أشمل لأنّه متعلّق بالحياة.

## "نحتاج فخرًا"

وصلنا إلى مرحلة وجب أن نفتخر فيها بكلّ شيء، بكلّ ما نُحدث في كلّ مجال و ميدان، بكلّ ما نبدع ما صغُر منه و ما كبُر، لماذا ؟ لأننا اليوم أواخر، في ذيل كلّ ترتيب، هاته الحقيقة التي وافقت واقعنا المؤلم ندفع ثمنها أوقاتا و أموالا، بل أجيالا أيضا، كيف يا ترى ؟

الكلّ يعلم أنّ العرب المسلمين كانوا في زمن من الأزمنة ربابين سفن العلم و المعرفة، قادة الحروب ضدّ الجهل، رافعي راية التقدّم و التطوّر، لم يكن لهم ذلك لولا توفيق الله و اجتهادهم المستمرّ لإفادة المسلمين خاصّة و الإنسانيّة عامّة، فكان ما كان لهم من رفعة و قدر، باتوا مهابين يسمع بهم القاصي و الدّاني، بماذا اشتُهروا ؟ و ما الذي جعلهم أشراف عصرهم و أرباب الحضارة بعدما كانوا يتقاتلون في البادية لأجل بعير ظلّ طريقه أو انتقام وجب أخذه ؟ ذلك العلم، تلك المعرفة ترفع ذكر صاحبها رغمًا عن كلّ شيء.

الآن و في زمن نظنّ أنّنا وصلنا فيه لذروة ما هدانا إليه هذا العقل، لازلنا نحن العرب نراوح مؤخّراتنا، و نضيّع أوقاتنا في تفكيك وحدتنا، نصرف الأموال في الرّقص و الجنس، في حين أنّ الغرب و ما فيه من فساد استطاع امتطاء رؤوسنا و الإقلاع بما أخذه منّا من كنوز لا تقدّر بثمن إلى مدى آخر، إلى بعد ثانٍ، ليصل إلى ما يدهش به الرائي الآن.

قضيّة إرادة، و خصوصا: تشجيع.

تشجيع كلّ مبادرة تبدو بعيدة التحقّق، كلّ فكرة مجنونة، كلّ مشروع، كلّ ما يمكنه أن يبعث خيط ضوء في ظلمة كهفنا الذي نقبع فيه، كلّ ما يقرّبنا إلى النّجاة من تبعيّة الغرب و الاستقلال بأنفسنا عنهم، بل أكثر من ذلك، علينا أن نتمادى في الافتخار بالإنجازات التي يقدّمها جيلنا هذا و لو كانت بسيطة، سنجعلها عظيمة، مُبهرة، فريدة، لأننا هؤلاء يحتاجون إلى الاعتراف، إلى التّكريم، إلى تشجيع يدفعهم أكثر إلى الأمام و يدفع آخرين ليحذوا حذوهم و يأخذوا بما أخذوا فتكون المنافسة بينهم، فيصير الصّغير كبيرا و الكبير أكبر، هكذا تحيى الهمم و تتسابق في نفع النّاس بما جادت عقول الشّباب المفكّر، فتُضاهي إنجازاتهم ما أنجز الغرب و ربّما يفوقونهم في وقت قصير.

أهذا ممكن ؟ بالطّبع ممكن فهم أيضا بالغوا في ذكر إنجازات كانت تبدوا بسيط مُستحقرة، أعطوها أهميّة بالغة و هي لا تستحقّ، و إذا بأصحابها يشعرون بحقيقة أهميّتهم في هذا المجتمع الذي يحتاجهم، و أدركوا واجبهم في تطوير ما أنجزوا، فانهمكوا و أخرجوا العجب من رحم البساطة، و أبهروا الكلّ بما قدّمت أناملهم، هم يعتبرون الإنسان إنسانا و يحترمونه على أنّه كذلك، يعطونه حقّه و أكثر فيصير بحكم ما سبق مدينا بشكل غير مباشر لكلّ من شجّعوه و رفعوا شأنه و قدره، فيضاعف و يزيد إلى غاية ملامسة الكمال في عمله و إبداعه.

فلنبالغ في افتخارنا بأبسط الإنجازات و لنجعلها عظيمة، فلنستبق أهميّتها و أثرها الجليل بذكر أصحابها بالـ"عباقرة" و "الأبطال"، و لم لا ؟ ما داموا سيصيرون كذلك عاجلا أم آجلا، ذاك مصير كلّ طالب رفعة، واجب علينا الافتخار بهم، و التّمادي في ذلك كما أسلفت، فبفضلهم سننجو من وحل التخلُّف و لعنة التذيّل، بفضلهم ستكون لنا صفحة أخرى نكتب فيها ما نريد، صفحة من كتاب تاريخ الإنسانيّة.

# "وطن يُلام"

من غرائب الأمور و عجائب المُحدَثات أن يجعل الواحد منّا وطنه عدوّه، المقصود هاته الأرض التي حضنت أجدادنا الأوائل و الأواخر، هذا التّراب الذي داسته أقدامنا سنينا من نعومة الطّفولة إلى عجز الشّيخوخة، هاته البسيطة التي في بطنها نُدفن بعد أن حيينا ما شاء الله أن نحيا من أفراح و أحزان، من خيْبات و إنجازات، فأوّلا و أخيرا هي الحياة تأخذ و تعطي، غير أنّ مطبّات السّبل و معوّقاتها، مصائب الدّنيا و مشاكلها، ترمي بشرر غضبنا على هاته التي أعطت و لم تبخل، و لا تزال تعطي و لا تسأل، هاته الأرض، هذا الوطن الذي ينتظر ردّ جميل أن جعلك إنسانًا مميّزا بلغة و جنسيّة، بلهجات و عادات، تقاليد و طقوس، بدين لا تعيشه مطمئنًّا إلاّ فرية من قراه أو مدينة من مدنه، أو حتّى في العراء و أنت في حضنه.

نعم، الجوع، المرض، الحاجة، البطالة، العنوسة، الفقر، و غيرها من الفتن و المهلكات، تدفعنا دفعًا لأن نعيد و نكرّر غاضبين مستائين: ما هذا البلد الذي مرّغ كرامتنا في التّراب ؟ ، ما هذا البلد الذي ضيّعنا و ضيّع أبناءه جيلا بعد جيل ؟ ما الذي يبقينا في حفرة كهذه ؟ ماذا أعطاني لأردّ له ؟ الهجرة لآخر يكرمني و يدرك معنايَ كإنسان، هذا هو الحلّ، الهروب من الذلّ و الهوان.

قول الشّباب تبعهم فيه الكهول و الشّيوخ، و قريبا تجد الرضّع يستاؤون، و بالرّجوع إلى بطون أمّهاتهم هربًا يريدون، و كأنهم على جهنّم يُعرضون.

ما ذنب هذا البلد الذي بنيناه نحن بأيدينا و جعلناه كما شئنا أن يكون ؟ ما ذنب الجبال و البحار و الشّواطئ و الغابات و الأراضي و كلّ جامد ؟ ما ذنب الزّهور و الطّيور و الوديان و الخلجان و ما كان على سطح الأرض و ما خفي ؟ أنلوم ما لا يعقِل و نحمّله مسؤوليّة أخطاء من عقل ؟ أنكره بلدًا أعطانا كلّ شيء دون حساب و ننسى أو نتناسى من كان سبب الخراب ؟

إنّ هذا الوطن صفحة نرسمها كما شئنا و أردنا، و ما النّتيجة إلاّ نهاية الأفعال، الوطن مرآة ما تقدّمه في حياتك، فإن أحسنت كان لك الخير العميم، و إن أسأت كان كلّ ما ساء و خبُث، إن أحببته أحببت نفسك و غيرك، لأنه نتاج ما قدّمت و قدّموا، و إن كرهته فقد كرهت نفسك و غيرك لأنّ الجميع في هاته الحالة أساء، فانقلب السّوء على فاعله، و ما المشاكل سوى سوء تقدير و تسيير لشؤون الحياة لا دخل للوطن فيها.

صحيح أنّ الوطن رمز، ليس فقط مجرّد أرض محدودة، لكن ما الذي يجعله مميّزا و بصمةً فارقة عن باقي الأوطان و الأمصار ؟

بعض البلدان تتشابه جغرافيًّا بشكل كبير، ما الذي يجعلها إذن مختلفة متمايزة رغم ذلك ؟

نحن من نجعل الوطن مختلفًا، شعبه نحن، الفاعلون فيه المعمّرون على أرضه، نجعله مميّزا بثقافتنا و تقاليدنا و ديننا و لغتنا و لهجاتنا و إنجازاتنا الفاعلة في تاريخ الإنسانيّة، شأن هذا الوطن من شأننا، و ما نجنيه في حياتنا ما هو إلاّ نتيجة أفعالنا و فقط، بل أكثر من ذلك، هذا الوطن بما فيه هو الذي يعاني من سوء تدبيرنا و ليس العكس.

قبل أن نوافق قولا و نكرّر عبارات لا تمتّ بصلة إلى المنطق و لا تفرج عنّا غمّة من الغُمم، علينا مراجعة أنفسنا، لأنّنا جانبنا الحقيقة، حقيقة أنّنا نحن الوطن، نحن موجدوه و منشئوه، و إن لمناه ظنًّا منّا أنّه سبب معاناتنا فإنّنا في الواقع نلوم أنفسنا المُقصّرة، و العيب كلّ العيب فينا و ليس في الذي كان لنا ملجأً آمنا و ذرعًا حاميا طيلة وجودنا.

وطنٌ يُلام معناه شعبٌ يُلام، هذا فقط و لا غير.

**الكتابة الأدبية و القهوة السّوداء ... هراء**

كثيرا ما يعيد و يكرّر بعض الكتّاب و الأدباء و من تبعوهم ممّن تأثّروا بقولهم: " أكتب حرفا و أنا أشرب القهوة السوداء"، " رفيق القراءة فنجان قهوة"، " أكتب روايتي و أنا أشرب القهوة" ...

هل صار الكلّ يحتسي القهوة السّاخنة و هو يقرأ أو يكتب ؟ أو لن يغشاه الإلهام إلاّ بعد شرب القهوة السّوداء ؟ أرى ذلك تماديا و تمظهرا أدبيًّا فاشلا ... لا علاقة للأولى بالثانية، فهذه لا تُوجب حضور الأخرى، و لا غياب الأولى يوجب غياب الثّانية.

ربّما بدأها أحدهم على سبيل وصف حالة شعورية استوطن فيها الهدوء و استقرت الطمأنينة في نفسه مع احتساء فنجان قهوة و قراءة كتاب، لكنها الآن صارت وسيلة و شبه ضرورة، يظنّه الغافل سلوك أديب مثقّف، لا وجود لعلاقة بينهما بتاتا، فيمكن أن تساورك أروع الأفكار و أنت في الخلاء، و لربّما احتسيت لترات قهوة دون أن يدغدغك إلهام،

في الحقيقة أرى أنّ الأمر تعدّى مجرّد رسم سورة نمطيّة مملّة للأديب أو القارئ، أراها محاولة تثبيت هيأة خاصة لهذا "المُحتسي" في الأذهان حتّى يصدّقها العقل و يسلّم بها، القراءة أو الكتابة وأخذ قهوة سوداء ساخنة في جنح اللّيل أو حين القيام صباحا أمام النافذة و الأمطار تهطل، أو الإطلالة من الشرفة و فنجان القهوة في اليد و النظر إلى المارّة بهدوء و سلام، أو غيرها من السّلوكيات التي توحي بنوع من "البريستيج" و " التّمادي" في اصطحاب أشياء صارت شبه لازمة مع القراءة أو الكتابة، هذه و غيرها محاولات تميُّز غير منطقيّة مبنيّة على المظاهر الخادعة بتخصيص سلوكيّات للفرد المثقّف ليست من مستلزمات القراءة أو الكتابة، و عليه و من منظور بعض السّفهاء فإنّه من لم يملك هاته "الإكسسوارات" فهو من المعدومين أدبياّ ...

ببساطة لأنّ المظهر غلب الجوهر الآن، و الأغلبيّة "تنجذب" إلى ما بان فقط و تجعل منه الحقيقة و تنسى أو تتناسى اللّب الأصيل ...

لو كان الأدب بالقهوة الساخنة و الإطلالات من الشّرف، أو حتّى بارتداء الأوشحة و أو ووضع القبّعات لصار الكل أدباءً و كتّابا بعد استجلاب هذه "المزيّفات" و غيرها.

يريد البعض تشويه حقيقة الأدب بمظهر غير مظهره، و مظهره الحقيقيّ هو الحروف و الكلمات، هي المشاعر المتدفّقة من دم الأقلام و روح الحبر... في رأيي هذا هو الأدب.

"دعه للخالِق"

ترنّح و كاد يقع
طمسته الرّذيلة
بعثره الهوس

ثمِل منه النّجس
بيده الحبيبة
بيده القارورة

يجرّ رأسه بين رجليه
مُسرعًا كما ظنّ
مُلبيًّا النّداء

و أيُّ نداء ؟
نداء النّقاء ... للأتقياء
"حيّ على الصّلاة ... حيّ على الفلاح"

تابعته الأنظار
سخر منه النّاس
"هذا حثالة من الأنجاس"

كذلك قالوا

"بيت الله عليه محرّم"

"كيف يجرؤ ؟"

زادوا و أعادوا

ظننت كما ظنّوا

سوء اعتقاد

بعد العودة إلى النّفس

و الاستكانة إلى العقل

كانت الحقيقة:

ربّما تائب

اشتغل بنفسك

و دعه للخالِق.